تحقيق الجاحظ

- ٣ -

« معرفة السماع »

—«×»—

والى جنب هذا المذهب الذي كان بذهبه في التحقيق اي مذهب الاستعانة بالعيان والتجربة مذهب آخر وهو معرفة السماع وقد أشار اليه في مقدمة كتاب الحيوان لما قال : فقد أخذ ، اي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة اي طريقة التحقيق بالسماع قد يلجأ اليها اكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت انه في كلامه على تأثير الحيوان في العمران كان يروي كلام احد التجار على النمل فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الاحوال على ما يسمعه من أفواه بل متعلقها الحيوان فكان يسمع اخبار العطارين والجزارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاحين والحوائين والأطباء والأكرة وغيرهم من اصدقائه واهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان مثل تقطيع أصوات بعض الطير او اقتتال العقارب والفار او طعم العقارب او طعم الحيات او سم الأفاعي او أخلاق بعض الكلاب او بيوت الزنابير او ختل الاسد لفريسته او زواج الشفنين او تسافد الذئب والذئبة او بعض أخبار الفيل او اخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الاخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الاخبار دون ان يعرضها على تمييزه ، او يعمل فكرته فيها وهو المتوثق في تحقيقه المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه الا المعاينة والذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ام كان الجاحظ يعمل الروية في الذي يتصل به من الأخبار فلا ينقل الا عن رجل لا يرتاب بخبره[١] او عن رجل قاطع الشهادة[٢] او عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق اخبارهم[٣] . او عن أستاذ من الاساتيذ . او عن رجل يثق بعقله و يسكن الى خبره[٤] .

ام كان ينقل عن جماعة اذا خالجه الشك في أخبارهم نبّه على غرابة أقوالهم وغثاثة عباراتهم وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات حتى يجعل القارئ على هدى من أمره . لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها .

فمرة كان يسمع من هذه الاخبار ما لا يهتدي الى الإحاطة باسراره فيسأل عن هذه الاسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الامر .

من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[٥] :

وقال ابن الكلبي : قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو فكّر رجل منكم عمره الأطول في ان يتعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المحدقة بمثل المجالس المستوية في الأقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة في المنظر الخفيفة في المحمل المستديرة ، المضمر بعضها ببعض المتقاربة الاجزاء ، وهي البيوت التي نعلم انها ينبت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزورة ، قولوا لي : كيف جمعته ومن اي شيء اخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسج ولا الخياطة ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يصر في ايدينا منها الا التعجب والتعجيب فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا انها تلتقطه من زبد الممدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ام من شيء يكون في الزبد والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسج » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٢٥) .
(٢) » » » ص ٧٠ .
(٣) » » » الثالث ص ١٦٣ .
(٤) » » » السابع ص ٤٢ .
(٥) » » » » ص ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلما رأى الجاحظ ان ابن الكلبي والشرقي لم يفسرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن اي شيء اخذتها لم يطمئن فكره ولم يهدأ باله ، فقصد الى مشايخ الاكرة وسألهم عن ذلك وهذه صفة من صفاته الغالبة فانه مجبول على محبة الوصول الى الحقائق يسأل عنها ايّا كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال[1] :

[وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الافاعي حيّة ونيّة مما دونها فقلت : ما بال الحيات منتنة الجلود والجذوم ، قال : اما الافاعي فانها ليست منتنة لانها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامةً فانها تطلب الفأر طلباً شديداً وربما رأيت الحية وما يكون غلظها الا مثل الإبهام الكبير ثم اجدها قد ابتلعت الجرذ اغلظ من الذراع ، وانكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ، ولم ار الذي قال قولاً مثل قول اعرابي ودخل الامصار فلقي من الجرذان جهداً فوجد بها ودعا عليها فقال : الابيات . . . . . »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون ابداء رأي فيه ، كقوله في سم الافاعي[2] :

[ومن عجيب سم الافاعي ما اخبرني بعض من يخبر بشأن الافاعي قال : كنت بالبادية ورأيت ناقة وفصيلها يرتضع من اخلافها اذ نهشت الناقة على مشافيرها أفعى فبقيت واقفة سادرة والفصيل يرتضع فبينا هو يرتضع اذ خرّ ميتاً فكان موته قبل موت أمه من العجيب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب وكان ماصار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً آخر] .

او قوله في بعض أخبار الفيل[3] :

« وحدثني صديق لي قال : رأيت الفيالين على ظهر فيل من هذه الفيلة فأقبل صبي يريد السندي الراكب فكلّم الفيل بالهندية فوقف ، ثم كلمه ، فمدّ يده رافعاً في الهواء حتى ركبها للغلام ثم رفع يده حتى مد السندي يده فأخذ بيد الصبي » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٨٠) .

(٢) » » » » ص ١١١ .

(٣) » » » الرابع ص ٧٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او قوله في اخبار تسافد الذئب والذئبة[١] :

وحدثني احمد بن المثنى قال : خرجت الى صحراء خوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وانا شاب اذ عرض لي ذئب فكنت كلما درت من شق استدار بي فاذا درت له دار من خلفي وانا وسط برية لا اجد معيناً الا بشيء أسند اليه ظهري واصابني الدُوار وابقنت بالهلكة فبينا انا كذلك وقد اصابني ما اصابني وذلك هو الذي اراده الذئب وقدره واذا بذئبة قد عرضت وكان من الصنع وتأخير الاجل ان ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها فلما عاينها تركني وقصد نحوها فما تلعثم ان ركبها وقد كنت قرأت في بعض الكتب انها تلتحم فقومت سهمي وهما ينظران اليّ فلما لم ار عندهما نكيراً حققت ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمها فمشيت اليهما بسيفي حتى قتلتهما .

او قوله في بعض اخلاق الكلاب وعاداتها[٢] :

او قوله في السنانير[٣] :

وزعم بعض الاطباء ان السنور انما يدفن خرأه ثم يعود الى موضعه فيشمه فان كان يجد من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب لان الفأرة لطيفة الحس حيدة الشم فان وجدت تلك الريح عرفتها فأمعنت في الهرب فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

او قوله في طعم العقارب[٤] :

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية انها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتياباً شديداً وخاصة اخبار البحر بين فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة بصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على كلام السمك[٥] :

« ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية والمناقع والمياه الجارية من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص٧٨) .
(٢) » » » » ص ٤٥ .
(٣) » » » الخامس ص٧٨ .
(٤) » » » الرابع ص١٥ .
(٥) » » » السادس ص٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السمك ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرّداً لاني لم اجد في اكثره شعراً يجمع الشاهد و يوثق منه بحسن الوصف وينشطه بمافيه من غير ذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه الا اخبار البحر بين وهم قوم لا يعدون القول في باب العمل و كلما كان الخبر أغرب كانوا به اشد عجباً ، مع عبارة غثة ومخارج سمجة ، وفيه عيب آخر وهو ان معه من الطول والكثرة ما لا تحتملونه ولو غنّاكم بجميعه مخارق وضرب عليه زلزل وزمر عليه برصوماً فلذلك لم اتعرض له » .

او قوله في موطن آخر (١) :

« وقد روي لنا غير واحد من اصحاب الأخبار ان اياس بن معاوية زعم ان الشبّوط كالبغل وان أمها بربة واباها بحري وان من الدليل على ذلك ان الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً وانا أخبرك اني قد وجدته فيه مراراً ولكني وجدتها اصغر جثة وابعد من الطيب ولم اجده عاماً كما اجده في بطون جميع السمك .

فهذا قول ابي وائلة اياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الإزكان وافوق من كور بن علقمة وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب فكيف اسكن بعد هذا الى اخبار البحر بين واحاديث المساكين والى مافي كتاب رجل لعله ان لو وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة و يبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساد معانيه بسوء ترجمته » .

واذا كانت اخبار البحر بين مما ينقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الايقان نبه عليه كقوله (٢) :

وسمعت حديثاً من شيوخ الأحي الموصل وانا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم و ينقبله جميعهم وزعموا ان الاسد ربما جلّل قلس السفينة فيتشبث به ليلاً والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون ان القلس قد التف على صخرة او تعلق بجذم شجرة ومن عادتهم ان يبعثوا اول المدادين ليحله فاذا رجع اليه الملاّح ليمده تمدد الاسد بالارض ولزق بها وغمض عينيه كيلا يبصر ويبصها بالليل فاذا قرب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين همّ الا القاء انفسهم في الماء وعبورهم اليه وربما اكله الا مابقي منه وربما

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .

(٢) » » » الثاني ص ٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جرّ فريسته الى عريسه وعرينه والى أجرائه واشباله وان ذلك على اميال » .

او اذا كان البحري مقتصداً في القول سديد الرأي قليل الكلفة اخذ عنه الخبر واشار الى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه كما قال في بعض المواطن [1] :

واخبرني رجل من البحر بين لم ار فيهم اقصد ولا اسدّ ولا اقلّ تكلفاً منه ، قال : لم اجدهم يشكون ان فيالاً ضرب فيلاً فأوجعه فألح عليه ، وانهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا لانهم حيث ينسالك فانه من الحيوان الذي يحقد و يطالب ولما اراد السائس القائلة شدّه الى اصل شجرة واحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس حمة فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئ على طرفه حتى تشعث ثم اخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على حمة الهندي ثم لواها بخرطومه فلما ظن انها تشبكت به وانعقدت جذب الهندي فاذا هو تحت رجليه فخبطه خبطة كانت فيها نفسه ، فان كان الحديث حقاً في اصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وان كان باطلاً فانهم لم يخلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم مايحتمل عليه و يليق به » .

على انه كان ينقل عن فريق منهم من غير ان يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله [2] :

« ويزعم البحريون ان طائرين يكونان ببلاد الصقالبة ، احدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم وقبل ان يمكن البحر من نفسه لخروجهم ومتاجرهم فيقول الطائر : قرب أمد ، فيعلمون بذلك ان الوقت قد دنا وان الامكان قد قرب ، قالوا ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول : سماروا وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب وسماروا ، كأنهم سموهما بقولها وتقطيع أصواتها كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لان القطا كذلك تصيح وتقطع أصواتها : قطا ، كما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم اهل البحر ان ذينك الطائرين لا يطير احدهما ابداً الا في اناث وان الآخر لا يطير ابداً الا في ذكورة » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٧١) .

(٢) » » » الثالث ص ١٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاج بها ارسطاطاليس في بعض رده عليه فانه لما قال [١] :

« وقد قلت لرجل من البحر بين : زعم ارسطاطاليس ان السمكة لا تبتلع الطعم ابداً الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي : مايعلم هذا الا من كان سمكة او اخبرنه به سمكة او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى ، فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل وهذا كله جوابه ولكني لم اقنع بذكر بعض ماوجدته في الأشعار والأخبار اذا كان مشهوراً عند من ينزل الاسياف وشطوط الاودية والانهار ويعرفه السماكون ويقر به الأطباء بقدر ما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في رده على ارسطاطاليس [٢] :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان ، وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

والخلاصة كان يثق عن ثقة وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله [٣] :

ودخلت انا سرة وحمدان الصباح على عبيد الشونيزي فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فاراً فاذا هي تقتتل فخيل لي ان تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتها ولم أر الا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ولو كان عبيد أستاذاً لخبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ومنها يتبين لكم ان الجاحظ لم يخل من التوثق في تسقط اخباره فاذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد الى الشك لان الرجل الذي يقول في

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .
(٢) » » » الخامس ص ١٥٦ .
(٣) » » » » ص ٧٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلامه على الأخبار وعلى المولعين بها [١] :

« ان الناس موكلون بحكاية كل عجيب وميسَّرون للاخبار عن كل عظيم وليسوا للحسن احكى منهم للقبيح ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

والذي يقول في موطن آخر [٢] :

« ان الخبر قد يكون اصله ضعيفاً ثم يعود قوياً ويكون اصله قوياً فيعود ضعيفاً للذي يعتريه من الاسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وفصوله الى ان يبلغ موته ومنتهى اجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على المتقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة امارة ليعيد قوة الخبر ويجدد ما قد همَّ بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام اجمعين » .

ان الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادةً من نقص الناقصين او زيادة الزائدين على حسب الاهواء او على قدر متانة الحفظ وضعفه او على قياس الفئة بالحقيقة والولع بالخيال فلهذا لم يجد الجاحظ له بداً من التثبت في تصديق بعض الاخبار ومن الشك في طائفة منها .

دمشق : في ٢٨ آذار سنة ١٩٣١

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ٦٢) .

(٢) » » » » » » ص ٥٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net